

الوافي في الوفيات

قال ياقوت : كان السبب في تقدمه أن أباه كان يتولى بعسقلان بعد القضاء ببيسان وكاتبه السلطان بمصر بالأخبار فاتفق أن والي عسقلان أطلق أسيراً له قيمة فتعلل عليه المصريون كونه لم يخبر بخبره فاستحضر إلى القاهرة وصودر حتى استصفى ماله ولم يبق له شيء فأصابته فجعة فمات وبقي الفاضل وأخت له وأخ على غاية من الاختلال وسوء الحال والفقر فألجأه الحال إلى أن مشى راجلاً إلى الإسكندرية وقصد بها القاضي ابن حديد فالتجأ إليه وعرفه بنفسه وشكا إليه فاقته فتوجع له وفرض له في كل شهر ثلاثة دنانير واستنابه في الكتابة عنه .

وفتحت الفرنج عسقلان وخرج أخوه وأخته حتى لحقا به وأقاما عنده فاخبره القاضي فوجده على غاية من الفصاحة والبلاغة وحسن المقاصد وكان إذا أراد مكاتبة ديوان مصر أمره بالكتابة عنه وكانت كتبه ترد كالدُر النظيم فحسده الكتاب الذين ترد كتبه عليهم وخافوا منه على منزلتهم فسعوا به إلى الطاهر بن الحافظ فحدث محمد بن محمد بن بنان الأنباري كاتب الإنشاء يومئذ قال : فأحضرني الطاهر وأمرني أن أكتب إلى الوالي بالإسكندرية أن يتسلم ابن البيسان من القاضي ابن حديد ويقطع يده ويسيرها إلينا قال : فما علمت السبب ولا عرفت ابن البيسان ووددت لو كان هذا الكتاب بخط غيري فأخذت الدواة والقلم والدرج وكتبت : بسم الله الرحمن الرحيم وبطلت الكتابة فنظر إلي وقال : ما تنظر ؟ قلت : عفو مولانا قال : تعرف هذا الرجل ؟ قلت : لا والله قال : هذه رقعة وردت من الديوان تخبر بسوء أدبه واستخفافه وذاك أنه كتب كتاباً وجعل بين السطر والسطر شبراً وهذا لا يكون إلا من الفاضل إلى المفضول . وبلغني أيضاً أنه يرى انتقاضنا وذهاب دولتنا ديناً فقلت : إن رأى استحضار المكتوب والوقوف عليه فأحضر فرأيت أبلغ كتاب وأحسن عبارة فقلت : هذا كتاب معدوم المثل وكاتبه أوحده عصره وما كتبوا في أمره بما كتبوا إلا حسداً له فإن رأى إحضار كاتبه وسماع لفظه والعمل بموجب المشاهدة رجوت أن يكون ثواباً وصواباً فكتبت بتسييره مكرماً فما كان إلا مسافة الطريق حتى أحضر إلى مجلس الطاهر وأنا حاضر فرأيت شاباً طريفاً بئيباً قصاراً وأكماماً لطيفة وطيلساناً فوقف بين يدي الطاهر فقال الطاهر : اختبره في شيء من الرسائل . فقلت له : مولانا يأمرك أن تكتب منشوراً لأحد أولياء دولته يتضمن توليته ما وراء بابه فقال : السمع والطاعة فقربت منه دواة فأخذ يكتب وهو قائم وكان إذا أراد أن يستمد انكب إلى الدواة ثم وقف فكتب فلما أن رأى الطاهر جريان قلمه وثبات جناحه أمر خادماً أن يحمل له الدواة ثم فرغ من الكتابة وهو قائم على رجله فتناولته الخادم وعرضه على الطاهر فاستحسن خطه وكان خطأً مليحاً رائعاً على طريقة ابن مقلة وقال لي :

اقرأه فقلت : يا مولانا اسمعه من منشئه فهو أحسن فقرأه بلسان حاد وبيان صادق فلما استتم قراءته أمر الظافر بقلع طيلسانه وأخذ عذبة عمايته وقتلها وتحنيكه بها ففعل به ذلك . ولم يزل في الديوان مدة أيام الظافر والفائز والعاضد .

فلما استعلى الصرغام على شاور وتولى الوزارة وهرب شاور إلى الشام وقبض على ولده الكامل وأودعه السجن خدمه الفاضل ومث إليه بخدمة قديمة ثم إن الصرغام تنكر على الفاضل فمضى من فوره إلى ملهم أخي صرغام واستجار به وكان ملهم هو الكبير وكان ترفع عن الولاية فأمره بملازمة داره حتى يصلح أمره فاتفق أن قرن بالكامل ابن شاور في محبسه وحبس معه وحصل له بذلك يد بيضاء عنده . ورجع شاور إلى الديار المصرية يصحبه شيركوه وقتل الصرغام وأخوه ملهم ملهم وبنوه وعادت الوزارة إلى ساور وركب ابنه الكامل من دار ملهم ومعه القاضي الفاضل حتى دخلا على شاور وعرف الكامل أباه شاور حقوق الفاضل عليه وحسن ولائه